قبل أن نتحدث عن التضحية والجهاد

✍ تراري بن عيسى

كنت حاضراً أحد النقاشات مع إخوان لي حول وضع الأمة الآن ، والواجبات الملقاة علينا في هذه المرحلة العسيرة التي تمر بنا . وما هي السبل للخروج من هذا النفق المظلم .

فقال أحدهم : كيف نأمل أن يحدث تغيير في أوضاعنا ، وقد تخلى معظم أبناء الحركة الإسلامية عن فعل الواجب والتضحية والجهاد بالنفس والمال والوقت .. وأصبحوا غارقين في مشاغلهم الدنيوية ، مكتفين بمجرد النقد والاستنكار ؟

فقال آخر : فعلاً! إن ما ينقصنا اليوم ، هو غرس روح التضحية في نفوسنا ، وحتى نكون عمليين ، ما رأيكم لو حاول كل واحد منا الاطلاع على موضوع التضحية والجهاد بالنفس والمال والوقت .. ومناقشته مستقبلاً بعمق لعله يكون منفعة لنا وذكرى لأنفسنا ، فوافقه الجميع على ذلك .

وأنا أبحث عن المراجع التي تتحدث عن الجهاد بالنفس والمال والتضحية في سبيل الله ..

قالت لي نفسي : هل حقيقة ما ينقصك وأصحابك هو مواضيع تتحدث عن الجهاد ، ووجوب التضحية بالنفس والمال والوقت ..

قلت لها : هذا ما اتفقت عليه وأصحابي سابقاً ولا يمكن تغييره الآن .

قالت : أعتقد أن كل واحد منكم ، لو طلب منه في أي مناسبة أن يعطي درساً في ضرورة المجاهدة والتضحية .. لما وجد عناء في ذلك . فالمشكلة ليست

في نقص المعرفة ولا قلة الأفكار . وما يجب مناقشته هو ، لماذا لم تنجحوا في تحويل ما تعلمتموه في عشرات المناقشات عن التضحية والجهاد وغيرها من المواضيع الأخرى إلى واقع ، إنكم تناقشون مسائل ضخمة وتفشلون في الأعمال الصغيرة ، وأعتقد أنه يجب وضع حد لهذا المسلسل الممل .

قلت لها : وبماذا تنصحين ؟

قالت : عوض أن تناقشوا موضوع الجهاد وضرورة التضحية .. عليكم أن تبحثوا في الأسباب التي تجعلكم غير قادرين على التضحية أحياناً حتى بتفاهات مصالحكم من أجل تحقيق أهدافكم .

قلت لها : فما هي الأسباب التي أدت إلى هذه الحال المزرية يا ترى ؟

قالت : من بين الأسباب التي تجعل المسلم غير قادر على التضحية والتغلب على عجزه وأهوائه :

١) **ضعف الإيمان** مما ينـــزع الربانية عن أنفسكم وأعمالكم ، وكيف يمكن أن تتحدثوا عن الأهداف الكبيرة وأنتم مجردين من ربانيتكم ، مع العلم أن الطائرات في بداية إقلاعها تحتاج إلى قدر كبير من الوقود ، وتأسيس الأعمال التجارية يحتاج إلى قدر كبير من الجهود . وهكذا البدايات تكون دائماً مكلفة ومربكة ومجهدة ثم تميل الأمور إلى اليسر والسهولة . وأنتم تحاولون أن تنطلقوا نحو آفاق واسعة المدى وهذا يحتاج إلى رواد من نوعية خاصة .

قلت لها : أعلم هذا ، ولكن كيف لنا أن نقوي إيماننا ونصبح ربانيين ؟

قالت : هناك حد أدنى أو **خط أحمر** لا يمكن النـــزول عنه ، ويتمثل في :

◆ إقامة الصلاة في أوقاتها ، وبذل ما أمكن لتقام في المسجد ، ولعل الشيخ أحمد ياسين رحمه الله الذي اغتالته يد العدو وهو يصلي الفجر في المسجد وهو يعلم أن ذلك قد يكلفه حياته ، حجة على كل مسلم اليوم ، لا يقيم الصلوات في المسجد .

◆ قراءة القرآن يومياً .

◆ قيام الليل يومياً ، ولو ركعتين ، لأن الاستيقاظ في السحر والناس نيام شعار الصالحين ونعمة خاصة يصطفي بها الله من يشاء من عباده المتقين . وقد وصف الله تلك الصفوة بقوله : ﴿ **كَانُوا قَلِيلاً مِنْ اللَّيْلِ مَا يَهْجَعُونَ ۞ وَبِالأَسْحَارِ هُمْ يَسْتَغْفِرُونَ** ﴾ [الذاريات : ١٧-١٨] .

◆ صيام ثلاثة أيام في الشهر على الأقل .

فإن التزمتم هذا فعليكم تحقيق ما يأتي :

٢) **ملازمة الهدف** : لأن الهدف الذي تريدون تحقيقه والذي من المفترض أنكم تعيشون من أجله يجب أن يلازمكم في كل حركة من حركاتكم ، ويجب إعطاؤه قدر من أوقاتكم وأنفسكم ، كما عليكم أن تحذروا أن تنسيكم مشاغل الدنيا أهدافكم وتجعلكم منهمكين في تلبية حاجاتكم وشهواتكم . وقد حذر الإسلام من أن تكون الدنيا مبلغ التنافس بين المؤمنين فقال رسول الله ﷺ : « ... **فَوَاللَّهِ مَا الْفَقْرَ أَخْشَى عَلَيْكُمْ ، وَلَكِنِّي أَخْشَى أَنْ تُبْسَطَ الدُّنْيَا عَلَيْكُمْ كَمَا بُسِطَتْ عَلَى مَنْ قَبْلَكُمْ فَتَنَافَسُوهَا كَمَا تَنَافَسُوهَا ، فَتُهْلِكَكُمْ كَمَا أَهْلَكَتْهُمْ** » رواه الترمذي وقال : حديث صحيح . ولقد بين الرسول ﷺ أن الحرص على الدنيا يورث الطمع فيها والانشغال بها وتكريس الحياة لها فقال : « **من أصبح والدنيا أكبر همه فليس من الله في شيء ، وألزم قلبه أربع خصال : همّاً لا ينقطع عنه أبداً أن وشغلاً لا يتفرغ منه أبداً ، وفقراً لا يبلغ غناه أبداً ، وأملاً لا يبلغ منتهاه أبداً منتهاه أبداً** » ، وهذه الدنيا التي أخذت زخرفها وازّينت واكتملت مفاتنها وتعددت لا ينبغي التساهل معها والخلود إليها ، فمن تساهل فيها قرضت إيمانه وأفسدت إسلامه . ومن هنا كان على المسلمين أن يتشددوا بالحساب على أنفسهم ، ويأخذوا ذواتهم بالعزائم حتى تستقيم على طاعة الله عزَّ وجلَّ .

٣) الابتعاد عن التحجج والتماس الأعذار

من السهل اليوم إيجاد أعذار لعدم الوفاء بالالتزامات وفعل ما هو في صالح الإسلام والأمة ، إلا أن الأعمال الجليلة والأهداف النبيلة لا تتحقق بلغة الأعذار بل تتحقق بلغة التضحية : ﴿ **انفِرُوا خِفَافًا وَثِقَالاً وَجَاهِدُوا بِأَمْوَالِكُمْ وَأَنفُسِكُمْ فِي سَبِيلِ اللَّهِ ذَلِكُمْ خَيْرٌ لَكُمْ إِنْ كُنتُمْ تَعْلَمُونَ** ﴾ [التوبة : ٤١] . يقول سيد قطب رحمه الله في تفسير هذه الآيات : « انفروا في كل حال ، وجاهدوا بالنفوس والأموال ، ولا تتلمسوا الحجج والمعاذير ، ولا تخضعوا للعوائق والتعلاّت » . أما أصحاب الأعذار ، سواء قبلت أعذارهم أو لم تقبل ، فلن يرحمهم الزمن وستتجاوزهم الأحداث والأجيال وهم في غفلتهم سادرون . ﴿ **يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا مَا لَكُمْ إِذَا قِيلَ لَكُمُ انفِرُوا فِي سَبِيلِ اللَّهِ اثَّاقَلْتُمْ إِلَى الأَرْضِ أَرَضِيتُمْ بِالْحَيَاةِ الدُّنْيَا مِنَ الآخِرَةِ فَمَا مَتَاعُ الْحَيَاةِ الدُّنْيَا فِي الآخِرَةِ إِلاَّ قَلِيلٌ ۞ إِلاَّ تَنفِرُوا يُعَذِّبْكُمْ عَذَابًا أَلِيمًا وَيَسْتَبْدِلْ قَوْمًا غَيْرَكُمْ وَلاَ تَضُرُّوهُ شَيْئًا وَاللَّهُ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ** ﴾ [التوبة : ٣٨-٣٩] . ويقول أيضاً في تفسير هذه الآيات : « إنها ثقلة الأرض ، ومطامع الأرض ، وتصورات الأرض .. ثقلة الخوف على الحياة ، والخوف على المال ، والخوف على اللذائذ والمصالح والمتاع .. ثقلة الدعة والراحة والاستقرار .. ثقلة الذات الفانية والأجل المحدود والهدف القريب .. (في ظلال القرآن ، ج٣)

٤) تأهيل الذات للعمل الجماعي

بعض الناس لا ينقصهم الإخلاص ولا قوة الإيمان وهم على استعداد للتضحية وتقديم ما أمكن من أجل صالح الجماعة ، إلا أنهم يفتقدون إلى المؤهلات التي تجعلهم ينفعون بها إن أرادوا العمل والتضحية . مع العلم أنه كلما ازدادت مؤهلات الفرد كلما ازداد عطاؤه ونفعه . ونحن في عصر قصّر فيه الكثير من أبناء المسلمين عن أداء الواجب وأصبح من العسير إيجاد عناصر تشعر فيه بالواجب ويؤرقها الوفاء بالالتزام . لهذا أصبح على الذين يريدون العمل في الحقل الإسلامي الجاد مضاعفة الجهود لسد أكبر قدر ممكن من الثغرات . وكما يقول

الأستاذ عصام العطار في كلماته : « ليس مخلصاً للإسلام ولا جاداً في خدمته ولو تحدث عن ذلك آناء الليل وأطراف النهار من يقنع بمستواه المتخلف المنخفض وإنتاجه الضئيل القيمة أو المقدار ولا يحاول أن يرفع نفسه بصدق وقوة واستمرار إلى مستوى حاجة الإسلام والمسلمين في هذا العالم والعصر » ، وقال في موضع آخر : « إن إمكاناتنا ومستوياتنا لها أثرها البعيد في أساليبنا في العمل . فالزورق الصغير ذو المجاديف الضعيفة يتحرك على الجوانب ببطء شديد ، ويتمايل ويتحايل للوصول إلى ما يمكنه الوصول إليه من غايته المتوخاة ، والزورق البخاري القوي يشق بقوة وسرعة إلى غايته المنشودة قلب التيار . لماذا يقنع أكثر العاملين للإسلام يا ترى بإمكاناتهم المحدودة ومستواهم المنخفض في عالم تجاوز بأبنائه عصر المجاديف والبخار ومخر بسفنه العجيبة حتى أجواء الفضاء » .

٥) الجدية والإحساس بالمسؤولية

وحتى يبلغ العامل في حقل التغيير اليوم مستوى التضحية . ينبغي أن يتولد لديه شعور ذاتي بمسؤولية العمل للإسلام واستعداد كامل لتلبية حاجات هذه المسؤولية من النفس والجهد .. فهو لا يتنظر التكليف لينهض بالأعباء والمسؤوليات وإنما يتوالد في أعماقه شعور فطري بالمسؤولية ويجري في عروقه إحساس رباني بالتكليف . وإذا انعدم هذا الشعور الذاتي ، فإن التكليف لا يصبح ذا أثر فعال ، واتكال العمل الإسلامي على مثل هذا الصنف من الناس من شأنه أن يعرضه باستمرار للانتكاس والإرتكاس ..

قلت لها : أنت على حق ، إن التضحية والجهاد بالنفس والوقت ما هو إلا ثمرة لحالة نفسية واكتمال للشخصية يصل إليها العاملون ، تتذلل أمامهم الصعاب وتهون أمامهم العقبات .